مجلة كلية الآداب

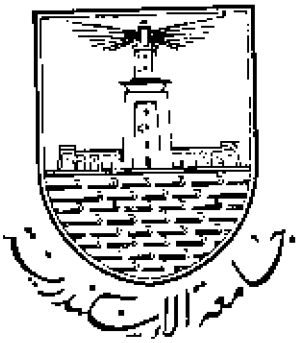

المجلد الحادى عشر

١٩٥٧

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية بالشاطبى ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى

الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٥٨

فهرس القسم العربى

محاضرات الأستاذية

صفحة

١ – أول أستاذ لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية ... ... ٣ –٢٩

محاضرة الأستاذية

ألقاها الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى

٢ – أول كتاب فى نحو العربية ٣١–٥١

محاضرة الأستاذية

ألقاها الدكتور حسن عون

أستاذ كرسى العلوم اللغوية

المقالات والابحاث

١ – أبو العلا عفيفى

أبو القاسم بن قسى وكتابه "خلع النعلين" ... ٥٣–٨٧

٢ – عبد العزيز برهام

قصة بنى اسرائيل كما يرويها "الكتاب المقدس" ٨٩–١١٧

٣ – محمد عبد المعز نصر

النظام الدولى فى القرن العشرين ١١٩–١٣١

٤ – مصطفى الأمير

الالتزامات والعقود فى القانون المصرى

الفرعونى ١٣٣–١٥٧

٥ – محمد ثابت الفندى

الله والعالم (الصلة بينهما عند ابن سينا

ونصيب الوثنية والإسلام فيها) ١٥٩–١٨٠

٦ – جمال الدين الشيال

الدبرية : أسبابها ونتائجها (ترجمة عربية عن

فصل كتبه الدكتور كولتون Coulton فى كتاب

تاريخ العالم) ١٨١–٢٢١

محاضرات الأستاذية

هذا تقليد حميد يتبع عادة فى الجامعات الاوروبية ، وقد اقترح الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب أن يؤخذ بهذا التقليد فى جامعة الأسكندرية ، وذلك أن يلقى كل أستاذ يرقى الى الأستاذية محاضرة خاصة تسمى "محاضرة الأستاذية" يعرف فيها بجهوده العلمية ثم يتحدث عن موضوع من الموضوعات التى يقوم بالبحث فيها .

وقد بدىء بتنفيذ الاقتراح هذا العام فى كلية الآداب ، ففى مارس سنة ١٩٥٧ ألقى الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال محاضرة عن "أول أستاذ لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية" وذلك بمناسبة ترقيته أستاذا لكرسى التاريخ الإسلامى الذى كان يشغله المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى .

وفى يونيه سنة ١٩٥٧ ألقى الأستاذ الدكتور حسن عون محاضرة عن "أول كتاب فى نحو العربية" وذلك بمناسبة ترقيته الى أستاذ كرسى العلوم اللغوية ، وهو كرسى أنشىء حديثا ولم يشغله أحد من قبل .

أول أستاذ

لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية

محاضرة الأستاذية

" ألقاها "

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى بجامعة الاسكندرية

[مارس سنة ١٩٥٧]

أول أستاذ

لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية

بقلم جمال الدين الشيال

مقـــــدمة

السيد عميد كلية الآداب

حضرات الزملاء الأعزاء

أيها السادة والسيدات

كلمتى الأولى فى هذا المقال تحية طيبة مباركة أرفعها إلى روح أستاذنا الجليل المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الإسلامى السابق بهذه الكلية .

شغل الأستاذ — رحمه الله — هذا الكرسى عشر سنوات منذ افتتحت جامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٤٢ إلى أن أحيل إلى المعاش فى سنه ١٩٥٢ ، وقد بدأت صلتى به منذ كنت أتتلمذ عليه فى جامعة القاهرة ، ثم توثقت هذه الصلة بعد تخرجى فكنت دائم التردد عليه والاتصال به والانتفاع بعلمه ، إلى أن رشحنى — رحمه الله — للنقل إلى جامعة الإسكندرية فى سنة ١٩٤٣ ، والعمل معه ، وتحت إرشاده أعددت رسالتى الماجستير والدكتوراه .

وأشهد أن الخطب كان فادحا وأن الخسارة كانت كبيرة بفقد الأستاذ العبادى ، أحس بها تلاميذه وأصدقاؤه ، وأحست بها الجامعات المصرية ، بل وأحس بها العالم العربى كله . فقد فقدنا بفقده مؤرخاً ثبتاً جليلا كان له أثر خطير فى تطوير التاريخ الإسلامى ودراساته ، فقد كان التاريخ الإسلامى قبله حكاية تروى أو بيتاً من الشعر ينشد أو نكتة طريفة يستشهد بها ، فكان هو

أول من أخضع هذا الفرع من فروع التاريخ لمناهج البحث العلمي الصحيحة من رجوع إلى المصادر الأصيلة وفهم صحيح لنصوصها مع دراسة منهجية قائمة على النقد والتحليل والمقارنة والاستقراء ، تشهد بهذا كتبه وأبحاثه ومقالاته [1] وتشهد بهذا دروسه ومحاضراته التي أفاد منها تلاميذه في مختلف الجامعات والمعاهد التي درس بها [2].

وإني مع ألمي وحزني لفقد هذا الأستاذ الجليل لأشعر بالزهو أن قُدِّر لي أن أشغل كرسياً كان يشغله العالم الفذ المرحوم الأستاذ العبادي ، والله أسأل أن يوفقني إلى ترسُّم خطاه واتباع منهجه وملء بعض الفراغ الذي تركه .

أما محاضرة اليوم فهي محاولة لأحياء تقليد قديم ، تقليد عرفته المدارس الإسلامية في العصور الوسطى ، ثم عرفته الجامعات الأوربية الحديثة ، وها نحن أولاء نحاول الأخذ به في جامعاتنا المصرية الحديثة .

كان المتبع في المدارس الإسلامية في العصور الوسطى — وهي بمثابة الكليات الجامعية الحديثة — أن المدرس — وهو الأستاذ في مصطلحنا الحديث — يحتفل بعد تعيينه بدرسه الأول احتفالا خاصاً ، فيحسن إختيار موضوعه ، ويبذل الجهد في إعداده ، ويسارع الطلبة والعلماء إلى حضوره ، ويحرص على الاستماع إليه الصفوة من رجال الدولة ، بل وقد يحضره السلطان نفسه أحياناً .

والجامعات الأوربية الحديثة تفعل اليوم شيئا شبيهاً بهذا ، فإن كل أستاذ يرقى إلى كرسي من الكراسي يلقي محاضرة خاصة تسمى محاضرة الأستاذية .

---

(١) انظر : جمال الدين الشيال : الأستاذ عبد الحميد العبادي ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد العاشر ، ١٩٥٦

(٢) درس رحمه الله في الجامعات والمعاهد الآتية : كليات الآداب بجامعات القاهرة والاسكندرية وعين شمس ، الجامعة الأزهرية ، مدرسة المعلمين العالية ببغداد ، معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية .

أما نحن فى جامعاتنا المصرية الحديثة فقد نسينا هذا التقليد القديم الحميد إلى أن فكر الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب فى إحيائه فى جامعة الإسكندرية ، وبدأ بكلية الآداب ، وشاء القدر أن أكون أول من رقى للأستاذية [1] فدعيت لإلقاء هذه المحاضرة ، محاضرة الأستاذية . .

أيها السادة

عندما دعيت لالقاء هذه المحاضرة أخذتنى الهيبة وتملكتنى الرهبة ، فإن الحالة التى أحيطت بها المحاضرة جعلتنى أفكر وأفكر طويلا ، إنها محاضرة الأستاذية ، وساءلت زملائى وإخوانى عن التقاليد المتبعة فى الجامعات الأوربية المختلفة ، وأى الموضوعات يختارها الأستاذ عادة عند إلقاء مثل هذه المحاضرة ؟ وعلمت أن التقليد فى بعض الجامعات أن يستعرض الأستاذ فى محاضرته جهوده العلمية السابقة ثم يشير إلى أبحاثه التى لا يزال يعمل لاستكمالها ، وعلمت أن التقليد فى بعض الجامعات الأخرى أن يختار الأستاذ موضوعا من الموضوعات التى يبحثها ويعرض فى محاضرته النتائج التى وصل إليها . .

ورأيت أخيراً أن أختار موضوعا أجمع — أثناء عرضه — بين التقليدين ، واخترت أن أتحدث إلى حضراتكم عن :

أول أستاذ لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية

فهذا موضوع جديد لم يعرض له أحد من قبل ، وقد وصلت فيه إلى نتائج أعتقد أنها تلقى أضواء جديدة على تاريخ التعليم فى الاسكندرية بل فى مصر كلها فى العصر الإسلامى الوسيط .

والموضوع إلى هذا له صلات وثيقة بالجهود العلمية والأبحاث التاريخية المتواضعة التى قمت بها حتى الآن ، فأنا عنيت فى وقت ما بالتأريخ للترجمة

---

(١) رقيت إلى كرسى التاريخ الإسلامى فى ٤ يونيو سنة ١٩٥٦

والحركة الثقافية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [1] ، ومحاضرة اليوم وثيقة الصلة بالتاريخ الثقافى لمصر .

ثم عنيت بعد ذلك بالتأريخ لبعض المدن المصرية فى العصر الإسلامى فكتبت تاريخا مختصرا لمدينة دمياط [2] وتاريخا موجزا لمدينة الاسكندرية [3]، وموضوع اليوم يبحث فى لون من ألوان الحياة فى مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ويعرّف بأول مدرسة إسلامية أقيمت فيها .

ومنذ سنوات طويلة أخذت نفسى بجمع الوثائق الرسمية لمصر الإسلامية ونشرها مع دراستها دراسة تحليلية مقارنة لبيان أهميتها كمصدر جديد من مصادر التاريخ الإسلامى [4] ، ومحاضرة اليوم ذات صلة وثيقة بهذا الميدان من ميادين البحث ، لأنى اعتمدت فيها اعتمادا كبيرا على دراسة وثيقة رسمية من العصر الفاطمى هى سجل بتعيين هذا الأستاذ الأول لهذه المدرسة الأولى .

ومنذ عنيت بتاريخ الاسكندرية عنيت كذلك بالتأريخ لأعلام الفكر الإسلامى الذين عاشوا فيها ، وأنا الآن فى سبيل إعداد كتاب [5] يؤرخ لهؤلاء

---

(١) انظر : جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٥٠ ؛ نفس المؤلف : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥١

(٢) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، الاسكندرية ١٩٤٩

(٣) جمال الدين الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، القاهرة ١٩٥١

(٤) انظر :

— Shayyal (Gamal Eldin) = *The Fatimid Documents as a Source for the History of the Fatimids and their Institutions. (Bulletin of the Faculty of arts, Alexandria University. Vol. VIII, 1954, P. 1-12)*

— جمال الدين الشيال : الوثائق الفاطمية (مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين) ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ١٩١ ، ٢٠٣

— نفس المؤلف : مجموعة الوثائق الفاطمية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية)

(٥) جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مخطوطة لم تنشر بعد .

الأعلام وللحياة الفكرية فى الاسكندرية فى العصر الإسلامى بوجه عام ، ومحاضرة اليوم فيها تعريف مفصل بعلم من هؤلاء الأعلام ، وهو العالم المحدث أبو الطاهر بن عوف .

وميدان آخر من الميادين العلمية التى بذلت فيها بعض الجهد هو ميدان نشر الأصول التاريخية القديمة التى تؤرخ لمصر الإسلامية فى عصورها المختلفة وخاصة العصرين الفاطمى والأيوبى المملوكى ، فنشرت أربع كتب [1] لعميد مؤرخى مصر الإسلامية تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، ونشرت الجزئين الأول والثانى من كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب [2] لجمال الدين ابن واصل ، ومحاضرة اليوم تلقى بعض الأضواء على تاريخ الاسكندرية فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى .

هذه هى الجهود العلمية التى بذلتها ولازلت أعمل فيها ، وهذه هى محاضرة اليوم ترون حضراتكم — كما سبق أن أشرت — أنها تتصل من أطرافها المختلفة بكل جهد من هذه الجهود .

أيها السادة

بقى أن أذكر كلمة سريعة عن المصطلحين المذكورين فى عنوان المحاضرة وهما : كلمة « أستاذ » وكلمة « مدرسة » ؛ فأستاذ كلمة فارسية الأصل معناها

---

(١) هذه الكتب الأربعة التى نشرتها تحت عنوان « مكتبة المقريزى الصغيرة » هى :
تقى الدين أحمد بن على المقريزى :
١ — نحل عبر النحل ، القاهرة ١٩٤٦
٢ — اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ١٩٤٨
٣ — الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ١٩٥٥
٤ — إغاثة الأمة بكشف الغمة (بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٠ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧

(٢) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل :
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ ، والجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات وزارة التربية والتعليم المصرية ، إدارة الثقافة العامة ، إدارة إحياء التراث القديم) .

الماهر فى كل صنعة ، وقد حرفت فى اللغة العامية فأصبحت « أسطى » وذلك لأن اللغة العربية لاتعرف فى ألفاظها الجمع بين السين والذال لصعوبة النطق بهما معا ، وكل كلمة جُمع فيها بين هذين الحرفين إنما ترجع فى أصلها الى اللغة الفارسية ، مثل كلمة « ساذج » التى حرفناها فى اللهجة العامية كذلك إلى « سادة » .

وقد أطلق لقب أستاذ[1] فى الأغلب الأعم على الجهابذة الأعلام من رجال الفكر والتعليم فى العصر الإسلامى الوسيط ، ثم جدد استعماله بهذا المعنى فى جامعات مصر الحديثة .

أما المدرسة فهى مصطلح لم يعرفه العالم الإسلامى إلا فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، فقد كان المسجد هو المعهد العلمى فى العصر الإسلامى الأول ، فى صحنه وفى أركانه تعقد حلقات العلم ويدرس الطلاب .

أما المدرسة باعتبار كونها مبنى مخصصا للدرس يضم عددا من الطلاب المتفرغين للدراسة وعددا من المدرسين المتفرغين للتدريس على أن تكفل هؤلاء وأولئك الدولة أو مؤسس المدرسة ، فتصرف لهم الرواتب أو الجامكيات من إيراد أو وقف ثابت مخصص للمدرسة ، أقول إن مصطلح المدرسة بهذا المفهوم وبهذا المعنى لم يعرفه العالم الإسلامى إلا فى القرن الخامس الهجرى ، وخاصة عندما أنشأ نظام الملك — وزير السلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وملك شاه — مدارسه النظامية ، وكانت أكبرها وأهمها نظامية بغداد .

---

(١) وقد استعمل هذا المصطلح فى مصر فى العصر الفاطمى بمعنى آخر ، فكان يطلق على كبار أمراء الجيش الذين يلون الوظائف الخاصة بالخليفة ، وكان الأساتذة على مراتب وأجلهم الأساتذة المحنكون وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة ، وكان من عاداتهم أنه إذا احتفل بتحنيك واحد منهم حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً ، فيصبح لاحقاً بهم ، وفى يده مثل ما فى أيديهم . انظر : (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٧) .

ثم انتشرت حركة انشاء المدارس فى الشام على أيدى الأتابكة ـ وخاصة نور الدين محمود بن زنكى ـ ، وفى مصر ومايتصل بها من بلدان على أيدى الأيوبيين والمماليك .

والذى نحب أن ننبه اليه الأذهان أن المدارس إنما انشئت أول ما أنشئت لدوافع سياسية مذهبية ، لمحاربة المذهب الشيعى أولا ، وللدعوة للمذهب السنى ثانيا ، ويكفى ليستبين صدق هذه النظرية أن نعرف أن السلاجقة مؤسسى هذه الحركة كانوا سنة مغالين فى سنيتهم ، وأن الدول التى أكملت الحركة ورعتها وانشأت العشرات من المدارس فى كل ركن من أركان الشرق الأوسط الإسلامى كانت دولا سنية كذلك .

بقى الآن بعد هذه التقدمة السريعة أن ننتقل إلى موضوع المحاضرة .

أول أستاذ

لأول مدرسة فى الاسكندرية الإسلامية

المعروف المتواتر أن حركة إنشاء المدارس فى مصر الاسلامية بدأت مع قيام الدولة الأيوبية فيها ، وذلك حينما أسس صلاح الدين يوسف ابن أيوب وأفراد أسرته وكبار رجال دولته المدارس المختلفة فى الفسطاط والقاهرة وغيرهما من مدن مصر .

وكان صلاح الدين بانشائه هذه المدارس يتبع سياسة موضوعة ، وينفذ خطة مرسومة للقضاء على المذهب الشيعى ، ونشر المذهب السنى ، مقتفيا فى ذلك سياسة أستاذه نور الدين محمود بن زنكى ؛ ففى سنة ٥٦٦ هـ أنشأ صلاح الدين — وهو بعد لا يزال وزيرا للخليفة الفاطمى العاضد — مدرسته الناصرية [1] الأولى فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى ؛ يقول المقريزى فى حديثه عن هذه المدرسة : « وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة » ، ثم يعقب على هذا بقوله : « وهى أول مدرسة عملت بديار مصر »[1]

وهذه الجملة الأخيرة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح ، ذلك أن ابن خلكان يقول فى ترجمته للعادل أبى الحسن على بن السلار — وزير الظافر الفاطمى — :

---

(١) فى نفس السنة التى أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة الناصرية ، بل وفى نفس الشهر (المحرم ٥٦٦) أنشأ مدرسة أخرى فى الفسطاط — هى المدرسة القمحية — لتدريس المذهب المالكى ، ثم بنى بعد ذلك المدرسة السيوفية بالقاهرة فى سنة ٥٧٢ هـ ، ثم حذا حذوه أمراء أسرته ورجال دولته ، فأنشأ ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه مدرسته التقوية — أو منازل العز — فى الفسطاط لدراسة المذهب الشافعى ؛ كما أنشأ مدرستين أخريين فى الفيوم ؛ وبنى العادل أبو بكر — أخو صلاح الدين — مدرسته العادلية بالفسطاط وخصصها لدراسة المذهب المالكى ، وهكذا ؛ راجع : (المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٥) و(ابن دقاق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٢ — ٩٤) و(ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٢) و(Enc. Isl. art : Masjid)

«وكان ظاهر التدين ، شافعى المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى إلى ثغر الاسكندرية المحروس وأقام به ، ثم صار العادل المذكور واليا به (أى الثغر) ، احتفل به وزاد فى إكرامه ، وتمم له هناك مدرسة فوّض تدريسها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن ، ولم أرَ بالاسكندرية مدرسة للشافعيين سواها»[1]

ومن الممكن أن يقال — اعتمادا على نص ابن خلكان هذا — أن ابن السلار — لا صلاح الدين — هو أول من أوجد المدارس بديار مصر ، وأن الاسكندرية هى أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، وذلك لأن ابن السلار كان — كما يذكر ابن خلكان — سنيا شافعيا ، كما كانت له اتصالات سياسية بنور الدين محمود بن زنكى فى الشام[2]

ونحن نستطيع أن نقول إن قول ابن خلكان لا يزال يحتاج — كما احتاج قول المقريزى — إلى تحقيق وتصحيح.

حقيقة إن الاسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، ولكن مدرسة السلفى لم تكن أول مدرسة أنشئت فى الاسكندرية ، وإنما سبقتها مدرسة أخرى هى المدرسة الحافظية التى أنشأها رضوان بن ولخشى — وزير الخليفة الحافظ الفاطمى — للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف ، وقد بنيت هذه المدرسة الحافظية قبل المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة ،

---

(١) (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ - ترجمة ابن السلار) وأنظر أيضا : (عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، ص ٨٢ و ١٥٨) و (المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحفنا ، ص ١٤٣ ب) ؛ ولترجمة السلفى انظر : (السبكى : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطى : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ص ٣٩) و (السيوطى : طبقات المفسرين ، ص ٥٦) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (الذهبى : تذكرة الحفاظ ، ج ٤) و (ابن العماد : شذرات الذهب) .

(٢) انظر : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٧) ، ويقول (حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٩٦) إن النزاع بين ابن السلار وابن مصال فى سبيل الوزارة إنما كان فى الحقيقة نزاعا بين السنيين والشيعيين ، وكان ابن السلار يطمع فى مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السنى المتعصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة فى مصر بدل مذهب الشيعة .

فقد بنيت الأولى فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ — ١١٣٨ م) ، وبنيت الثانية فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

ورغم ما لهذه المدرسة الحافظية من أهمية بالغة ، لكونها أول مدرسة أنشئت فى الاسكندرية بل فى مصر كلها ، فإن أحداً من المؤرخين القدامى أو المحدثين لم يشر إليها أو يعنى بالتأريخ لها .

وأبو الطاهر بن عوف هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى ابن عوف الزُهْرى ، وينتهى نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان شيخ المالكية فى مدينة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع ؛ فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وتوفى سنة ٥٨١ هـ [١] (١١٨٥ م) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطى بأنه « صدر الإسلام » ، وقال إنه تفقه على أبى بكر الطرطوشى [٢] ، وسمع منه ؛ وتخرج به الأصحاب [٣] .

---

(١) (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٠) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢)

(٢) راجع ترجمة الطرطوشى فى : (ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨) و (ابن بشكوال : كتاب الصلة ، تحرير ، ١٨٨٣ ، ج ٢ ، ص ٥١٧ — ٥١٨) و (المقرى : نفح الطيب) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ — ٣٩٥) و (ياقوت : معجم البلدان ، مادة : طرطوشة) و (الحميرى : صفة جزيرة الأندلس — من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار — ، نشر بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٢٤ — ١٢٥) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) و (الزركلى : الأعلام) و (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة طوب قبوسراى ، ص ١٢٤ ا — ١٢٥ ا) و (المرتضى الزبيدى : اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، المطبعة الميمنية ، ١٣١١ ، المقدمة) و (ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٧٤ — ٧٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٠) و (النصبى : بغية الملتمس ، رقم ٢٩٥) و (الطرطوشى : سراج الملوك) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠) و (جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ، طوبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٧) و (الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مخطوطة لم تطبع بعد)

(M. Ben Chaneb : *Etudes sur Les Personnages Mentionnés dans l'Idjâza du Cheikh Abd al-Qâdir el Fasy. Paris, 1937. P. 133, 169 - 170. and the literature quoted).*

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢

وقال أبو الحسن على بن الحميرى :

« كان ابن عوف — رحمه الله تعالى — إمام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك — رحمه الله — ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع إلى ذلك الورع والزهد ، وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس »[1]

وقال عالم الاسكندرية ومؤرخها منصور بن سُلَيْم[2] :

« كان (ابن عوف) من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السِلَفى ، وروى عنه شرف الدين بن المقدسى »[3]

وبيت ابن عوف بيت مصرى سكندرى أصيل ، نبغ فيه أكثر من عالم ملأوا المدينة علما ، قال منصور بن سليم :

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥

(٢) هو أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذانى الاسكندرى ، محتسب الاسكندرية ، ولد فى ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ ، وأخذ عن الكثيرين ، ورحل إلى الشام والعراق ، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ ، وجمع لنفسه معجما ، وكتب تاريخا كبيرا لمدينة الاسكندرية ، ذكر السبكى والذهبى أنه كان فى مجلدتين ، وذكر السخاوى أنه كان فى أربع مجلدات ؛ توفى فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ. وتاريخه لمدينة الاسكندرية مفقود — للأسف الشديد — ؛ وقد كنت عثرت منذ سنوات فى (فهارس المخطوطات العربية بمكتبة أياصوفيا باستانبول ، ١٣٠٤ هـ) على مايفيد وجود نسخة خطية من هذا الكتاب بهذه المكتبة فى جزئين تحت رقمى ٣٠٠٣ و ٣٠٠٤ ؛ وبادرت فى ذلك الحين بالكتابة إلى المستشرق الألمانى ريتر Ritter — وكان يقيم حينذاك فى استانبول — استوضحه حقيقة هذه المخطوطة ، ولكنه كتب إلى يقول إن الكتاب مفقود ، وإن الكتاب الموجود مكانه ، والذى يحمل رقمه ، هو « قصة الاسكندر الرومى وسياحاته ودخوله فى الظلمة باحثا عن ماء الحياة » ؛ والتعريف بمنصور بن سليم راجع : (الذهبى : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، وفيات سنة ٦٧٣ ، ص ٣٩٦) و (الذهبى : تذكرة الحفاظ ، ج ٤ ، ص ٢٤٩) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤١) و (السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٧) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٩) و (السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢) و (حاجى خليفة : كشف الظنون) و (الشيال : الاسكندرية ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧) و (السلاوى : منتخب المختار ، نشر الغزاوى ، بغداد ، ١٩٣٨ ، ص ٢٢٩ — ٢٣١) (Brockelmann : *Geschichte der Arabischen Litteratur, Supp. vol I. P. 573 - 574*).

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ .

« وبيت ابن عوف بثغر الاسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال : سمعت أنه اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد ، وكانوا إذا دخلوا على الإمام أبى على سند بن عنان [1] — مؤلف كتاب الطراز — يقول : « أهلا بالفقهاء السبعة » ، تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية »[2]

وقد أخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالاسكندرية ، وخاصة عن أبى بكر الطرطوشى ، ولا عجب فى هذا ، فقد كان ابن عوف وبيب الطرطوشى ، وكان الطرطوشى تزوج خالة ابن عوف[3]

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر فى سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين الاسكندرية فى سنة ٥٧٧ هـ ، وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبى الطاهر بن عوف ، وسمعوا عليه جميعا « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشى .

روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفانى ، فقد كان مصاحبا لصلاح الدين فيهما ، قال :

---

(١) كان أبو على سند بن عنان بن إبراهيم الأزدى أنبغ تلاميذ الطرطوشى وأقربهم اليه ، وكان كأستاذه مالكى المذهب ، وقد سمع منه وأخذ عنه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، وقد رشحته مؤهلاته لأن يخلف أستاذه الطرطوشى فجلس فى حلقته ومدرسته بعده يلقى الدروس فى العلوم المختلفة وخاصة فى فقه مالك ، وظل يدرس إحدى وعشرين سنة بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفى سنة ٤٤١ هـ ، ودفن بالقرب من قبر الطرطوشى ، ولا يزال قبره ومسجده موجودين فى الاسكندرية حتى اليوم ، وقد ألف سند بن عنان كتاب « الطراز » فى ثلاثين مجلدا فى شرح « المدونة » ، وهى من أمهات الكتب فى فقه مالك ، انظر : (ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٢٦ — ١٢٧) و(السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢١٣) و(الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، مخطوطة لم تنشر بعد)

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٦

" وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) إلى الاسكندرية على طريق البحيرة ، وخيّم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جدّدها ، والعمارات التى مهّدها ، وأمر بالاتمام والاهتمام ، وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف ؛ فحضرنا عنده ، وسمعنا عليه موطأ مالك — رضى الله عنه — بروايته عن الطرطوشى ، فى العشر الأخيرة من شوال ، وتمّ له ولأولاده ولنا به السماع " (١).

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصّل خيراً كثيرا بتتلمذه على ابن عوف وسماعه منه ، فقد أرسل القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع، و يقارن فيها بين رحلة صلاح الدين هذه مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ، ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك ، وفيما يلى نص الرسالة :

" أدام الله دولة المولى الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى دولة أمير المؤمنين ، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه وأوصله إليها ، وأوزع الخلق شكرا لنعمته فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستندا إلى إيداعه ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر محجل .

والحمد لله الذى جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ؛ فى الأول

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤

يطلب حديث المصطفى — صلى الله عليه وسلّم — فيجعل أثره عينا لا تسّر ، وفى الثانى يحفل لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثرا لايظهر .

وقد استغرق الناس هم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه ، والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه ، وصنفوا فى ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه ، والرفع من أقدار أهله والتنويه ، فقالوا : رحل فلانٌ لسماع مسند فلان ، وسار زيد إلى عمرو على بُعْد المكان ، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره ، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر ، فما القول فى ملكٍ خواطره كأبوابه مطروقة ، وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة ، إذ هاجر إلى بقية الخير فى أضيق أوقاته ، وترك للعلم أشد ضروراته ، ووهب له أياما مع أنه فى الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته .

وما يحسب المملوكُ أن كاتب اليمين كتب قطُّ لملكٍ رحلةً فى طلب العلم إلا للرشيد هارون — رحمة الله عليه — ، على أنه خلط زيارة نبوية[1] بطلب ، ورحل بولديْه إلى مالك — رحمة الله عليه — لسماع هذا الموطأ ، الذى اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة فى سماعه ، والرحلة لانتجاعه ؛ وقد كان الرشيد سام مالكا — رحمه الله — أن يجعل له ولولديْه : الأمين والمأمون مجلسا خاصا لإسماع مصنفه ، فقال له ما معناه : إنها سُنَّةُ ابن عمك — صلى الله عليه وسلم — ، وغيرُك من سرّها ، ومثلك من نشرها ؛ فهذه رحلة ثانية فى الزمان وأولى فى الإيمان ، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين ، ويقوم

(١) الأصل : « زيارة نبوته » ، وما هنا قراءة ترجيحية .

فيها مقام الرشيد ، ويقوم عليه وعثمانه [1] مقامَ ولديه المأمون والأمين .

وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك ـ رحمة الله عليه ـ في خزانة الكتب المصرية [2] ، فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية فهو بركة عظيمة ، ومنقبة كريمة ، وذخيرة قديمة ، وإلا فليلتمس .

وكذلك خطُّ موسى بن جعفر في فتيا المأمون ـ رحمهما الله ـ كان أيضا فيها ، وكلاهما يُتبرك بمثله ، ويعلم به فضل العلم ، لا خلا المولى ـ أبقاه الله ـ من فضله .

وقف المملوكُ على ما بشّر به من صنع المولى وتوفيقه ، وصحة مزاجه في طريقه ، وانقطاع ما كان من دم ، واستراح القلب من كل هم ، وقد استفتحت هذا الطريق بكل قال ، مباركة البكر والفال ، مأثورة عن سيد البشر ، فمن ذلك صحة جسمه ، فلتهنه الصحة ؛ وفسحة قلبه ، دامت له الفسحة ؛ وانقطاع الدم ، وطريقه إلى الشام ينقطع بها الدم ، ويتصل النصر له وينتظم السلم ؛ وأخرى أنه رحل الى الموطأ رحم الله ما لكه ، ورحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله

---

(١) يقصد ولدى صلاح الدين : الأفضل علي ، والعزيز عثمان ، فهما الفتيان كانا معه في هذه الرحلة وسمعا معه الموطأ على ابن صوف ، وكان عمر الأول وقتذاك اثنتي عشرة سنة ، فقد ولد سنة ٥٦٥ هـ ، وكان عمر الثاني عشر سنوات ، فقد ولد سنة ٥٦٧ هـ . أنظر : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢٧) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ و ١٩١) .

(٢) يقصد خزائن الكتب الفاطمية التي كانت ملحقة بالقصر الشرقي الكبير ، وقد استولى عليها صلاح الدين فيما استولى عليه من ذخائر الفاطميين ومخلفاتهم ، وقد منح بعض هذه الكتب لخاصته وأمر ببيع الباقي ، والنص هنا يفيد حقيقة جديدة لم يشر إليها أحد ممن كتب عن هذه الخزائن ، وهي أن صلاح الدين ضم بعض هذه الكتب إلى خزانة الكتب الخاصة به ويسميها النص هنا " الخزانة الناصرية " ؛ وعن خزانة الكتب الفاطمية راجع : (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، تحرير جمال الدين الشيال ، ج ١ ، ص ٢٠٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) .

به ممالكه ؛ والله تعالى يحقق الخير ، ويصرف الضير ، ويبارك لمولانا فى المقام والسير ، إن شاء الله "[1]

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة ، يجله ويحترمه ويقدره ويوقره ، وإذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أوالدولة أرسل إليه يسأله الرأى والفتوى ، يؤكد هذا قول ابن فرحون :

" وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه ".

وقد روى الصفدى فى كتابه « نكت الهميان » قصة مراسلة من هذه المراسلات عند ترجمته للقاضى شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون ، فقد أضر هذا القاضى آخر عمره أثناء توليه القضاء ، وثار الجدل حول جواز بقائه فى منصبه بعد إصابته بالعمى ، وكان ابن أبى عصرون نفسه حريصا على أن يظل قاضيا ، فألف رسالة أيد فيها جواز أن يكون القاضى أعمى ، وهو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه الكثرة ، ويبدو أن صلاح الدين كان حريصا على ارضاء ابن ابى عصرون وعدم المساس بشعوره فى شيخوخته ، فأرسل يستفتى ابن عوف فى الأمر ، قال الصفدى :

" وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضى الفاضل يقول فيه : إن القاضى قال : إن قضاء الأعمى جائز ، فتجتمع بالشيخ أبى الطاهر بن عوف الاسكندرى ، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى "[2]

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته ، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر ، وهى ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الاسكندرية ، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر ، قال ابن فرحون :

---

(١) أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤ – ٢٥

(٢) الصفدى : نكت الهميان ، ص ١٨٥ ؛ وراجع أيضاً مقدمة الكتاب ص ٦٠ فقد ناقش فيها هذا الموضوع من الناحية الفقهية ، أنظر كذلك : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٩) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ١١٢) .

" وقيل إنه (أى ابن عوف) كان السبب فى تجديد الصادر[1] بثغر الاسكندرية ، وهو شئ وظّفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الاسكندرية ، زائدا على العشر ، رتّبه لفقهاء الثغر ، دنانير تصرف فى كل شهر ، وجعل له ناظرا وشهودا ، أوقفه عليهم وعلى ذريّتهم "[1]

وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل فى ميدان التأليف ، فقد قال السيوطى : " وله مؤلفات " ؛ وقال ابن فرحون : " وله مصنفات " ، ثم أشار إلى اثنين من هذه المصنفات ، قال :

" قال ابن هلال : رأيت له مجلدا فى الرد على المتنصر ، وهو رجل يدّعى العلم وليس من أهله ، صنّف كتاباً سمّاه : « الفاضح » وأعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيها تناقضاً فى الأحكام ، وكان جاهلا مصحفا ، فمما صحّف : قوله — صلى الله عليه وسلم — : « تمرة طيبة وماء طهور » بقوله : « خمرة طيبة » ؛ وقال : أنظر كيف يقول : « خمرة طيبة » ، وهو يحرّم شرب الخمر .

... وللشيخ أبى الطاهر تذكرة التذكرة فى أصول الدين ، وغير ذلك من التآليف "[2].

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص٩٦ ؛ هذا وقد كان فى الاسكندرية فى تلك العصور ساحة أو مخازن كبيرة لتجارة الفرنج الصادرة مقابل الميناء الشرقية ، وتسمى هذه الساحة بالصادر ، وقد أشار إلى الصادر المؤرخ السكندرى محمد بن القاسم بن محمد النويرى فى كتابه الذى لا يزال مخطوطاً " الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية " عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان عند زيارته للاسكندرية سنة ٧٧٠ هـ ، فهو يقول إن السلطان بعد دخوله من باب رشيد سار فيما كان يسمى وقتذاك بالمحجة العظمى — وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالى أو الطريق الكانوبى القديم — ، ثم مر بمسجد أبى الأشهب ، وعطف عطفته فرعى دار ابن الحباب ، ومنها إلى حفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر . فالصادر تبعاً لهذا كان قريباً من باب البحر أى قريباً من منطقة المنشية الحالية ومن الميناء الشرقية . راجع : (الشيال : الاسكندرية ، طوبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٣٧) .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فلم أجد إشارة لها إلا عند المقريزى ، فقد قال فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فى حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

" وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الاسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف "[1]

فتكون بذلك أول مدرسة أنشئت فى مدينة الاسكندرية ، بل مصر كلها ، فقد سبقت المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ فى صبح الأعشى على السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى بتعيين ابن عوف مدرسا لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى ، لأنه السجل الوحيد الذى وصلنا من العصر الفاطمى كله بتعيين مدرس ، وهو إلى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً :

— فهو يسميها « بالمدرسة الحافظية » نسبة إلى الخليفة الحافظ الذى أنشئت المدرسة فى عهده ، وإن كانت المدرسة بعد ذلك قد غلبت عليها شهرة مُدرِّسها فعرفت فى المراجع المتأخرة باسم « المدرسة العوفية »[2].

— وهو يحدد اسم الشارع الذى أنشئت فيه المدرسة وهو « شارع المحجة » ، فقد قال : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة » .

وقد حققنا فيما سلف هنا موقع هذا الشارع اعتماداً على نص للنويرى ذُكر فيه شارع المحجة ، ورجحنا أنه شارع فؤاد الأول الحالى[3].

— وهو يذكر أن الوزير السيد الأجل (ولم يذكر اسمه) هو الذى أشار بإنشاء المدرسة ، ويشير إلى الأسباب التى دعت إلى إنشائها فيقول :

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة سراى ، ص ١٣٨ ب .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦

(٣) أنظر مافات هنا ص ١٩ ، هامش ٢

" ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الاسكندرية ـ حماه الله تعالى ـ على غيره من الثغور .. وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه أو الطارئين عليه ، متشتتو الشمل ، ومتفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرض أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس منّاً عليهم وإنعاماً ، ومستقراً لهم ومقاماً ، ومثوى ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكناً "

ـ ويشير السجل أيضا إلى أن المدرسة بنيت بحيث تتخذ ـ إلى جانب التدريس ـ مأوى للطلاب ومسكنا لهم ، فهى قد جعلت كما يقول النص : «مثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكناً » .

ـ ونُصّ فى السجل أيضاً على أن يصرف للطلبة مؤنتهم وكل ما يقوم بأودهم ويعينهم على التفرغ للدراسة « من عيش وغلة »، وأن يطلق هذا كله من ديوان الخليفة .

ـ وأشير فى السجل إلى إسناد التقدمة فى المدرسة أى الإشراف عليها للفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبى الطاهر (ولم ينص على اسمه) ، وعلّل هذا الاختيار مخاطباً الفقيه بقوله :

" لنفاذك وإطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدر فى علوم الشريعة ، والحال منها فى المنزلة الرفيعة ، والمشعل الذى اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقوى ".

ـ وحدّد السجل المواد التى تدرس بهذه المدرسة فقال إنها «علوم الشريعة».

ـ وعهد السجل إلى الفقيه ابن عوف ـ إلى جانب التدريس ـ بالاشراف التام على شئون الطلاب ، وتوزيع المطلق عليهم ، وترك له الحرية التامة أن يقرّب منهم من ارتضى طريقته ، وأن يبعد من ينكر قضيته .

— ثم هو يوصي كبار الموظفين بالثغر من « الأمير المظفر ، والقاضي المكين ، وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين » برعاية هذه المدرسة « ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخي على منافعهم » .

— وفي ختام السجل نص تعريف يشير إلى أن الأمر بتعيين المدرسين كان يُتلى أولا على الكافة بالمسجد الجامع ، فهذه هي طريقة الإعلان والنشر الممكنة في تلك العصور ، ثم يُخلَّد هذا السجل — أي يحفظ — بالمدرسة ، ليكون « حجة بما تضمنه » .

فهذه كلها أمور هامة خطيرة تقدم مادة جديدة قيمة للباحثين الذين يريدون تأريخا جديداً نافعاً للمدارس الإسلامية ، أو لنظام التربية والتعليم بوجه خاص في مصر الإسلامية .

والسجل كما أورده القلقشندي في « صبح الأعشى » يُذكر على أنه « سجل بتدريس » ؛ ولم ينص على اسم الخليفة ، أو الوزير ، أو المدرس الذي صدر الأمر بتعيينه ، أو كاتب الانشاء الذي كتبه ، أو التاريخ الذي كتب فيه .

وقد استطعنا نحن — عن طريق الدراسة التاريخية التحليلية المقارنة — أن نملأ هذه الثغرات ، وأن نقول مطمئنين إنه صدر عن الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله ، بإشارة من الوزير رضوان بن ولخشي ، بتعيين الفقيه أبي الطاهر بن عوف مدرسا للمدرسة الحافظية بثغر الاسكندرية .

في السجل إشارة غامضة تشير إلى أنه صدر في عهد الحافظ ، فقد جاء في صدر السجل : « أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التي جعلته لدينه حافظا » ؛ وجاء في السياق : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية »

أما الوزير الذي أشار ببناء المدرسة فإن اسمه لم يُذكر صراحة في السجل ، وإنما ذكر بألقابه ، فقيل : « السيد الأجل الأفضل » ، وقد تحققنا أن هذه ألقاب رضوان بن ولخشي ، فقد قال المقريزي في حوادث سنه ٥٣١ هـ عند

حديثه عن تولى رضوان الوزارة للحافظ : « وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل »[1] .

أما الدافع الذى دفع الوزير رضوان إلى إنشاء هذه المدرسة الأولى لابن عوف الفقيه السنى المالكى فواضح غاية الوضوح ، وذلك أن رضوان نفسه كان — رغم وزارته لخليفة فاطمى شيعى — سُنّيا ، قال المقريزى فى ترجمته له : « وكان رضوان سُنّيا حسن الاعتقاد »[2] ، وقال فى موضع آخر : « وأخذ (رضوان) يهين حواشى الخليفة إذا حضروا إليه ويقدح فى مذهبه ، لأنه كان سنّيا ، وكان أخوه الأوحد إبراهيم إماميا »[3]

---

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٧ ب ؛ هذا وقد أشار (أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص ٥٤) إلى السجل موضوع الدراسة هنا ، وظن أن يكون صدر لتعيين السلمى ، ثم قال : " والسجل يدل على أن الحافظية أنشئت فى عهد الوزير أحمد بن الأفضل " وهذا خطأ واضح أدى إليه عدم التحقق أو التثبت .

(٢) المقريزى : المرجع السابق .

(٣) المقريزى : المرجع السابق ، ص ١٣٨ أ ؛ هذا ويبدو أن رضوان كان عظيم الثقة بأبى الطاهر بن عوف ، يلجأ إليه فى الملمات ، ويستشيره فى المشكلات الكبرى ، فقد استطرد المقريزى يروى أخبار النزاع القائم بين الخليفة الحافظ ووزيره رضوان ، قال : " فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ... فتناظر كل منهما من الآخر ، وكان رضوان خفيفاً طائشاً لا يثبت فهم بخلع الحافظ وقال : « ما هو بخليفة ولا إمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح » ، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف وابن أبى كامل فقيه الإمامية ، وابن سلامة داعى الدعاة ، وفاوضهم فى الخلع واستخلاف شخص عينه لهم ، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده ؛ فقال ابن عوف : « الخلع لا يكون إلا بشروط تثبت شرعاً » .

وقال ابن أبى كامل : « السلطان — أبقاه الله — يحملنى على أن أتكلم على غير مذهبى فى الإمامة ؟ »

قال : « لا ، بل على مذهبك »

فقال : « مذهبى معلوم » ، يعنى أن الإمامية لا يعتقدون فى صحة الخلافة فى بنى اسماعيل بن جعفر ، لموته فى حياة أبيه ، وانتقال الإمامة للحاضر من أخوته ، ولأنه لا ينبغى لمن لم تكن له إمامة أن يخلع ، فتخلص من هذا .

وقال الداعى : « أنا داعى القوم ومولى لهم ، وما يصح لى خلعه ، فإن أمير فيما مضى كأنى أدعو لغير مستحق ، فأكون قد كذبت نفسى ، فلا أقبل الآن ، واستخصم بذلك ، ولا يؤثر قولى فيما تريدون ، ولم تجر العادة على أفاضلين بالخلع حتى نتأسى به »

فقابله على هذا القول بالسب ، وأقامه أقبح قيام ... الخ " .

وجاء فى السجل إشارة إلى أن المدرس المقصود هو أبو الطاهر بن عوف وإن كانت قد ذكرت كنيته دون اسمه ، قال : « واستقرت القدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر[1] » .

وقد كانت الجملة التى ذكرها المقريزى عن إنشاء المدرسة هى المفتاح الذى هدانا إلى هذا التحقيق كله ، فقد قال حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الاسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف »[2]

أما كاتب الإنشاء الذى كتب هذا السجل فإنا نرجح أن يكون أبو القاسم ابن الصيرفى فقد كان كاتب الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ ، وكتب عدداً كبيرا من السجلات التى وصلتنا عن عهد هذا الخليفة ، وظل يتولى هذا المنصب إلى أن توفى فى سنة ٦٤٢ هـ

وفى سنة ٥٨١ هـ توفى ابن عوف ودفن فى الاسكندرية ، ولكننا نبحث اليوم عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لها أثرا ، وهكذا فعل النسيان والإهمال بعالم ملأ المدينة علما ، وقضى حياته الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمى مدرج من مدرجات المبنى الجديد لكلية الآداب باسم هذا العالم « ابن عوف » .

ولأهمية السجل الصادر بتعيين أبى الطاهر بن عوف مدرسا لأول مدرسة أنشئت فى مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى آثرنا نشر نصه كاملا فيما يلى نقلا عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨–٤٥٩)

---

(١) يشترك الحافظ أحمد بن محمد السلفى مع ابن عوف فى الكنية ، فكل منهما يكنى بأبى الطاهر ، وهذا ظن البعض أن هذا السجل صدر باسم أبى الطاهر السلفى ولتعيينه بالمدرسة التى أنشئت له بثغر الاسكندرية أيضاً فى أواخر العصر الفاطمى ، ولكن المدرسة السلفية أمر بإنشائها الوزير العادل ابن السلار فى سنة ٥٤٤ هـ فى عهد الخليفة الظافر ، وسميت أول أمرها بالمدرسة العادلية ثم عرفت فيما بعد باسم المدرسة السلفية . راجع : (المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ ب) .

(٢) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨ ب .

سجل بتدريس

« ... أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التي جعلته لدينه حافظاً ، ولمصالح أمور المسلمين ملاحظاً ، ولما عاد بشمول المنافع لهم موآثراً ، وعما أحظاهم عنده تبارك وتعالى مُعيناً وعليه مُثابراً ؛ لا يزال يُوليهم إحساناً وفضلاً ومَنّاً ، ويُسبغ عليهم إنعاماً لم تزل تسم (؟) همهم إلى أن تتمنى ، وقد يسّر الله تعالى لخلافته ودولته ، ووهب لإمامته ومملكته ، من السيد الأجل الأفضل ، أكرمَ ولىّ ضاعف تقواه وإمعانه وأكمل صفىّ وقّفَ اهتمامه واعتزامه على ما يرضيه سبحانه ، وأعدل وزير لم يرضَ فى تدبير الكافة بدون الرتبة العليا ، وأفضلَ ظهير ابتغى فيما آتاه الله الدارَ الآخرةَ ولم يَنْسَ نصيبه من الدنيا ؛ فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عمّ صلاحه عمومَ الحواء ، ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضمائرَ بما يرفع فيه من صالح الدعاء .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزةُ ثغر الاسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور ، فإنه خليقٌ بعناية تامة لا تزال تُشجد عنده وتُعمر : لأنه من أوثق الحصون والمعاقل ، والحديثُ عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ؛ وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ؛ وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه ، متشتتو الشمل ، متفرقو الجمع ؛ أبى أميرُ المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ؛ ولم يرضَ لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين ؛ وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منّاً عليهم وإنعاماً ، ومستقراً لهم ومُقاماً ؛ ومثوىً لجميعهم ووطناً ؛ وعملاً لكافتهم وسكناً .

فجدَّد السيدُ الأجلُّ الأفضلُ — أدام الله قدرتَه — الرغبةَ إلى أمير المؤمنين فى أن يكون ماينصرف إلى مؤونة كل منهم والقيام بأوَدِه ، وإعانته على ماهو بسبيله وبصدده ، من عَيْن وغلَّة ، مطلقا من ديوانه ، واسترفد أمير المؤمنين المثوبةَ فى ذلك ، فأجابه جريا على عادة إحسانه .

واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد حمال الفقهاء أبو الطاهر : لنفاذك واطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدرُ فى علوم الشريعة ، والحائزُ منها فى المنزلة الرفيعة ، والمشتغلُ الذى اجتمع له الأصولُ والفروع ؛ ومَنْ إذا اختُلِفَ فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الوَرَع والتُّقى ، وأن مُجاريكَ لايكون إلا ناكصا على عَقِبَيه مخفقا ؛ وأمر أميرُ المؤمنين أن تُدرِّسَ علومَ الشريعة للراغبين ، وتعلم ما علَّمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين ، وخرج أمرهُ بكتْب هذا المنشور بذلك شدًّا لأزْرك ، وتقويةً لأمرك ، ورَفْعا لذكرك .

فأخلصْ فى طاعة الله سرا وجهْرا ، فإنه تعالى يقول فى كتابه :

« ومَنْ يتقِّ الله يُكفِّرْ عنْهُ سيئاته ويُعْظِمْ له أجرا » .

واعتمدْ توزيعَ المطْلَق عليهم ، وتقسيمَه فيهم على حسَب مايؤدى اجتهادُك إليه ، ويوقفُك نظرُك عليه ، وقرِّبْ مَنْ ارتضيت طريقته ، وأبعد من أنكرت قضيَّته فقد وُكِلَ ذلك إليك ، وعُلِّق بك من غير اعتراضٍ فيه عليك .

فمن قرأه أو قُرئ عليه من : الأمير المظفَّر ، والقاضي المكين ــ أدام الله تأييدهما ــ ، وكافّة الحماة والمتصرفين ، والعُمّال والمستخدمين ، فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخي على منافعهم .

وليُتْلَ هذا المنشورُ على الكافّة بالمسجد الجامع ، وليُخَلَّد بهذه المدرسة حُجّةً بما تضمّنه ، إن شاء الله عز وجل » .

جمال الدين الشيال